

الفصل الرابع

المسيحية والوعد المقدس

وصدق وعد الله فكان من إبراهيم أمة وكان من أعقابه نسل كعدد نجوم السماء وانتشرت ذريته شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، سكن الاسماعيليون أبناء إسماعيل بن إبراهيم أو العرب العدنانية كما يعرفون عند مؤرخى العرب في شمال الجزيرة العربية واتصلوا بأبناء عمومتهم العرب القحطانية فأصهروا إليهم وصاهروهم وقيل عن الإسماعيلية أنهم العرب المستعربة أى الذين استعربوا أو أصبحوا كالعرب سكان الجزيرة الأصليين وتكلموا إحدى اللهجات المنتشرة حينذاك في شبه الجزيرة العربية فأصبحت لغتهم وهى اللهجة التى تطورت على مر الزمن فكانت لهجة عدنان التى تبلورت فأصبحت لغة قریش وعمت حتى غلبت على غيرها من اللهجات العربية الأخرى فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ببضع مئات من السنين .

ومن الثابت أن إبراهيم حين نزح بامرأته هاجر وابنه إسماعيل إلى الجنوب وتفجرت بئر زمزم قد أقام بيتا للرب إلى جوار البئر كالبيت الذى أقامه للرب فى بيت ايل (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا) .

ويبدو أن دين إبراهيم قد عمّ بين سكان الجزيرة العربية فقد أقام

إبراهيم البيت على محطّ للرواحل بين الشمال والجنوب ولعله في اختياره لتلك البقعة كان يقصد أن يكون البيت منتجع قبائل العرب ومهوى أفئدتهم وأن تنتشر ديانتهم بين العرب من قاصدى البيت أو المارين به . فال معروف أن الكعبة قبل ظهور الإسلام بزمان طويل قد أصبحت بيتاً مقدساً لدى العرب أجمعين ، وكان لكل قبيلة عربية وثن أو صنم يقيمونه فيها ويتقربون بإقامته إلى الله في رحابها . وليس غريباً أن تتسرّب الوثنية إلى دين إبراهيم فقد تسربت أيضاً إلى إسرائيل فأقام الإسرائيليون الأنصاب والأزلام في الهيكل وقربوا لها القرابين وسجدوا لها من دون الله كما هو ثابت في أسفار العهد القديم بل إنهم اتخذوا من سبائك الذهب عجلًا عبدوه وهم في التيه حين غاب عنهم موسى في صعوده إلى الجبل لمناجاة الله^(١) .

ومن ولد إبراهيم أيضاً أبناؤه من قطورة وهم آباء ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية خالصة^(٢) . ويقال إن قطوراهم هي قطوراء في رأى النسابين وهم أبناء عم جرهم ، أقبلوا ظعنًا من اليمن وأقاموا بمكة ، على جرهم مضاض بن عمرو وعلى قطوراء السמידع ، واتصلوا بالعدنانيين أبناء إسماعيل وعاشوا بينهم ، إلّا أننا لا نجد فيها ذكره النسابون ما يدلّ على أصل قبيلة قطوراء وإن ذكر ابن خلدون أن قطورا هي بنت يقطان ، وفي سيرة ابن هشام أن قطوراء هو أول من تكلم بالعربية عند تبليل الأفكار .

ويقال: إن سدانة الكعبة كانت لجرهم قبل أن تنتزعها منهم خزاعة وتنتقل من خزاعة إلى قريش . وجرهم هذه هي جرهم الثانية وقد ظهرت

(١) خروج ٣٢ : ١ - ٦ .

(٢) جواد على : ج ١ ص ٢٨٣ .

بعد هلاك جرهم الأولى ، وفي جرهم الثانية هذه نشأ إسماعيل ، خلفه أبوه بينهم بعد أن قام ببناء الكعبة وآب إلى أرض كنعان .

ولعل تلك الصلة الجديدة بين إبراهيم وجرهم هي التي أدت إلى زواج إبراهيم من ابنة عمهم قطورة . ويبدو أن القبائل التي تنسب إلى أبناء إبراهيم من قطورة قد انتشرت في شمال الجزيرة العربية وامتد هذا الانتشار أحياناً إلى بادية الشام وطور سيناء كما يظهر ذلك في المدونات الآشورية وغير الآشورية التي تشير إليهم ، وأنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل بين اليمن والشام ، وهناك من يقول كالعلامة « جليسر »^(١) : إن كلمة قطورة تعني البخور مما يؤيد أنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل التي تحمل البخور ،

ويرجع علماء التوراة أصل قبائل شبا ودادان ومدين إلى قطورة ومن المعروف أن موسى أصهر إلى يثرون كاهن مدين في ابنته صفوره مما يؤيد اتصال نسب إسرائيل بقطورة .

أما ولدا إبراهيم من سارة - عيسو ويعقوب - فقد انقسما على بعضهما فارتحل عيسو إلى جبل سعيير وهو مرتفع من الأرض بين برية « صين » إلى الغرب وبلاد العرب إلى الشرق ويشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى خليج العقبة ويعرف ببلاد « أدوم »^(٢) وإليها ينسب الأدوميون أبناء عيسو وكانت لهم مملكة تداوها ملوكهم قبل أن يكون لإسرائيل مملكة بزمان طويل^(٣) وظلوا سادة الطرق التجارية بين الجنوب والشمال حتى أدبل منهم إلى النبط .

وقد اتصلت كراهية عيسو لشقيقه يعقوب فيهم فوقفوا دون عبور

Glaser, Skisse 2. P. 449 (١)

(٢) جواد عل : ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٣) تكوين ٣٦ : ٣١

إسرائيل إلى فلسطين وحالوا بينهم وبين المرور في أراضيهم » فقال له أدوم لا تمر بى لئلا أخرج للقاتك بالسيف . فقال له بنو إسرائيل . فى السكة نصعد وإذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه . لا شىء . أمر برجلى فقط . فقال لا تمر . وخرج أدوم للقاته بشعب غفير وببد شديدة . وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه فتحول إسرائيل عنه «^(١) .. وامتدت عداوة أدوم لإسرائيل حتى وقعت الحرب بينهما فى عهد « شاءول » ومن جاء بعده ، بالرغم من أن الإسرائيليين قد جهدوا دون جدوى فى إرضاء الأدوميين والظفر بمودتهم فكانوا يذكرونهم بما بينهما من قربى وأن أباهما واحد إلا أن لهيب العداوة فى نفس الأدوميين للعبريين ظل حامياً فحالفوا أعداءهم عليهم .

ولا يبقى بعد هؤلاء من ذرية إبراهيم غرباء مشردين لا يملكون أرضاً غير بنى إسرائيل وكان وعد الرب لإبراهيم أن يكون نسله كعدد نجوم السماء وأن تملك ذريته تلك الأرض التى تمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات وأن يكون منهم أمم وملوك . فإذا كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة أو البركة - رسالة إبراهيم وبركته - فقد ملكت ذرية إبراهيم أكثر هذه الأرض ولم يكن لإسرائيل مبارك بغير فيها كما رأينا ، فإذا أراد الله لإسرائيل أن تخرج من مصر وتبعد إلى أرض كنعان فلكمال الوعد . وليجتمع نسل إبراهيم فى صعيد واحد . وكان وحى الرب لموسى وأنبياء إسرائيل من بعده بالصعود إلى أرض كنعان وامتلاكها تحقيقا لا كتمال العهد ، إلا أن بنى إسرائيل قد جهدوا عبثاً أن يملكوا أرض كنعان فما استطاعوا حتى بعد أن وصل ملكهم فى عهد داود وسليمان إلى أقصى مده ، مما يؤيد أن الوعد بالإرث لم يكن للأرض وإنما كان للبركة

والرسالة فحينما آمنت ذرية إبراهيم برسالته حلت فيهم البركة وحق لهم الوعد ، وحيثما جحدوها وتنكروا لها لم يكن لهم في بركته نصيب وأصبحت أرض الميعاد حراماً عليهم ، وفي أسفار العهد القديم ما يشير إلى أن الله قد شرّد بني إسرائيل وشتتهم بين شعوب الأرض أذلاء مستضعفين حتى لا ينجسوا أرض ميعاده وبيته المقدس .

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدرّكك . ملعونا تكون في المدينة ملعونا تكون في الحقل . ملعونة تكون سلتك ومعجنتك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك . ملعونا تكون في دخولك وملعونا تكون في خروجك . يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماءك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديدًا . ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك . يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك في طريق واحدة تخرج عليهم وفي سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض^(١) .

« وبيدك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر . وفي تلك الأمم لا تطمنن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً

(١) تثنية ٢٨ : ١٥ - ٢٥ .

وكلال العينين وذبول النفس ، وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليل
نهار ولا تأمن على حياتك ، في الصباح تقول ياليتك المساء وفي المساء تقول
ياليتك الصباح من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ومن منظر عينيك الذي
تتظر . ويردك الرب إلى مصر في سفن في الطريق التي قلت لك لا تعد
تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء وليس من يشتري^(١) .
وفي أرميا « ولم يستطع الرب أن يحتمل بعد من أجل شر أعمالكم من
أجل الرجاسات التي فعلتم فصارت أرضكم خربة ودهشاً ولعنة بلا ساكن
كهذا اليوم »^(٢) .

فلو كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة والبركة لما كان هناك
قيد أو شرط لامتلاك الأرض أما الأرض ، أرض البركة والرسالة ،
فلا بد وأن تكون لمن يمتازون بالبركة والرسالة من ذرية إبراهيم ، ولعل في
اختيار ذرية إبراهيم بالذات ما يقصد به إعلاء شأن الرسالة والنبوة ، وقد
كانت النبوة في إسرائيل حتى قام بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام
فنسخ حق إسرائيل في البركة والرسالة معاً . ثم كان محمد ﷺ فصّدق
بإبراهيم وموسى وعيسى وختم رسالة السماء وحلّت فيه بركة إبراهيم
ورسالته .

والاختيار للأرض وليس للشعب فالأرض هي الأرض المباركة التي
قدستها اليهودية والمسيحية والإسلام على السواء وقد اختار الله تلك
الأرض وسطاً في دنيا العالم القديم ، حيث شَعَت أولى حضارات التاريخ
وأشرقت شمس المدنية ، وهي اليوم كما كانت بالأمس ملتقى الحضارات
والأفكار وهي على الطريق من عالمنا الحاضر ترد إليها وتصدر عنها كلّ
تيارات العالم السياسية والفكرية وتلاحم على أديمها كل صنوف الأمم .

(١) تثنية ٢٨ : ٦٤ - ٦٨ .

(٢) أرميا ٤٤ : ٢٢ .

وكان اختيار الله لتلك الأرض التي باركها وقدّسها لتكون قدس أنبيائه وموطن رسالته إلى البشر ، حتى تكون رسالته إلى كل العالمين طراً فليس هناك من مكان يتوسط العالم كفلسطين حيث يمكن للرسالة أن تتجاوز أربعة أركان الدنيا وتعمّ البشر أجمعين .

ومادام الاختيار الإلهي قد وقع على تلك الأرض لتصدر عنها رسالات السماء - اليهودية والمسيحية والإسلام - فلا بدّ وأن يقع الاختيار أيضاً على أولئك الذين يضطلعون برسالات السماء لتكون لهم الأرض دون غيرهم ، وقد حلّت بركة السماء في إبراهيم وذريته فكان منهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت الأرض له ولذريته من بعده .

وقد عبر إبراهيم بأمر الرب إلى أرض كنعان ووعد بأن تكون له ولذريته تلك الأرض من الفرات إلى النيل ولكن إبراهيم مات دون أن يملك شبراً واحداً في تلك الأرض وحين اختار مكان قبره وقبر سارة زوجته وآل بيته في مغارة المكفيلة أمام ممرا وكانت على طرف حقل لعفرون ابن صوحر الحثي ، ابتاع المكان من صاحبه . ولعله لم يملك في فلسطين غير سكنه وقبره هذا .

وقد مرت بضع مئات من السنين دون أن يكون لإبراهيم أو لأحد من ذريته مكان في فلسطين إلا أن ذريته من الإسماعيليين والقطوريين والأدوميين قد انتشروا كما رأينا في بقاع أخرى من أرض الميعاد وملكوا عليها قبل أن يصعد بنو إسرائيل إلى فلسطين حتى إذا صعدوا بعد خروجهم من مصر ، أقاموا ملكاً لم يسع كل بلاد فلسطين في يوم من الأيام . ولم تملك ذرية إبراهيم أرض الميعاد إلا في ظل الإسلام فكانت للعرب مقاماً وملكاً إلى يومنا هذا وتحقق في العرب الإسماعيلية وعد الله لإبراهيم كما لم يتحقق في أحد من ذريته الآخرين وحلّت فيهم بركة العهد

وبركة الرسالة وكانت لهم أرض الميعاد مصداق ما عاهد عليه الرب نبيه إبراهيم .

وليست فلسطين وحدها هي أرض الميعاد كما يدعى اليهود في تفسيرهم للتوراة فإن عبارة « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » تضم بقاعاً وتخوماً تمتد إلى ما وراء فلسطين وما بعدها ، هي طور سيناء وما يواجهها شرقاً من بلاد العرب الشمالية وكل بادية الشام والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا حتى أعالي الفرات وقد أقام إبراهيم بيتين للرب في أرض ميعاده ، أشارت التوراة إلى أحدهما ولم تشر إلى الآخر ، بيت ايل في أرض كنعان والبيت المحرم (الكعبة) إلى جوار جرهم في العرب الشمالية مما يدلّ دلالة قاطعة على أن أرض الميعاد ليست هي فلسطين وحدها كما أنها ليست لبني إسرائيل وحدهم دون البقية من ذرية إبراهيم أو الإسماعيليين على وجه أدق إذا عرفنا أن القبطوريين والأدوميين قد اندمجوا في العرب الإسماعيلية بعد ذلك لطول ما كان بينهم من جيرة وصلات ، ويقصّ العهد القديم أن المديانيين كانوا مع الإسماعيليين حين بيع يوسف^(١) والمديانيون كما قلنا هم نسل إبراهيم من قطورة ويرى « حتى » أن أرضهم تقع في بلاد العرب^(٢) .

والثابت تاريخياً أن الشريعة الموسوية قد تأثرت إلى حد بعيد بعبادة أهل مدين أو المديانيين وهي عبادة « يهوه » إله قبيلة مدين وبعض بلاد العرب الشمالية وقد شاعت هذه العبادة بين العبريين^(٣) وهذا ما يحمل بعض المؤرخين على القول بأن الدين اليهودي ينم عن أصل صحراوي .

(١) تكوين ٣٧ : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) Hitti, P. 40 .

(٣) جواد على ج ٢ ص ٣٥٢ .

وليس لدينا من تفسير لذلك إلا أن ديانة إبراهيم قد انتشرت في بعض بلاد العرب الشمالية أو كلها مما يدل على أن بركة إبراهيم ورسالته لم تكن لإسحق وحده وإنما كانت لإسماعيل أيضاً ، فإذا كان الإرث للبركة والرسالة ، فإن رسالة إبراهيم قد شملت بعض بلاد العرب الشمالية وامتدت إلى أرض كنعان بعد نزول بني إسرائيل إليها مما يقطع بأن أرض الميعاد ليست أرض كنعان وحدها وإنما هي تلك البلاد الفسيحة التي تمتد من مصر إلى أعالي الفرات .

وينسب العهد القديم قصة فداء يفسرها علماء التوراة أنها لإسحق^(١) كما يقص القرآن قصة فداء ينسبها المسلمون لإسماعيل أو أن الفداء كان لكل منهما ويكون فداء إسماعيل قد سبق فداء إسحق فقد اكتمل إسماعيل صبياً حين حمله أبوه إلى بركة فاران مع أمه ، وكان إسحق طفلاً في فطامه^(٢) مما يوحى بأن بركة إبراهيم كانت لإسماعيل وإسحق على حد سواء . إلا أن عبادة إبراهيم قد تبلورت في شريعة موسى ورسالته ، وكانت رسالة موسى إلى بني إسرائيل تهيداً لرسالة الساء الكبرى في المسيحية والإسلام ، ففي ظل المسيحية والإسلام ينطوى البشر أجمعون ، من ذرية إبراهيم ومن غير ذريته ، وليس في قصر رسالة موسى على إسرائيل ما يفيد معنى الاختيار أو التميز فقد كانت رسالة إبراهيم إلى أهله وبنيه ، وكان كل رسول يبعث إلى قومه ، وكانت رسالة موسى إلى بني إسرائيل هي آخر رسالة لنبي إلى قوم بعينهم فقد جاءت المسيحية بمبشرة بملكوته السماء للبشر جميعاً وجاء الإسلام هدى للناس كافة لا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى فإذا تميز بنو إسرائيل بالاختيار فهو الاختيار

(١) تكوين ٢٢ : ١ - ١٤ .

(٢) تكوين ٢١ : ٨ - ٢١ .

الذى كان لغيرهم من الأقوام التى سبق إليها الرسل والأنبياء ، وهو الاختيار الذى يقوم على الإيمان بالرسالة ولا يقوم على أفضلية العنصر أو الجنس ، وهو الاختيار الموقوت بزمن الرسالة ، فإذا حلت رسالة أخرى محلها فقد زال عنهم الاختيار وما يصحبه من تميز المؤمن على الوثنى لا تميز العنصر على العناصر الأخرى .

وقد جاءت المسيحية لتصحيح فهم الإسرائيليين لمعنى الاختيار ولتجدد نقاء اليهودية بعد أن تسربت إليها أباطيل العنصرية والتميز والانحراف عن مبادئ إبراهيم وتعاليمه . فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو أحد فروع تلك الشجرة المباركة التى تنسب إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام ، فهو « يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم . إبراهيم ولد إسحق ، وإسحق ولد يعقوب . ويعقوب ولد يهوذا وإخوته . ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . وفارص ولد حصرون . وحصرون ولد آرام . وأرام ولد عميناداب . وعميناداب ولد نحشون ، ونحشون ولد سلمون . وسلمون ولد بوغز من راحاب . وبوغز ولد عوبيد من راعوث . وعوبيد ولد يسي ، ويسى ولد داود الملك . وداود الملك ولد سليمان من التى لاوريا . وسليمان ولد رحبعام . ورحبعام ولد أبيا . وأبيا ولد آسا . وآسا ولد يهو شافاط . ويهو شافاط ولد يورام . ويورام ولد عزيا وعزيا ولد يوثام ويوثام ولد أحاز . وأحاز ولد حزقيا وحزقيا ولد منسى . ومنسى ولد آمون . وآمون ولد يوشيا . ويوشيا ولد يكنيا وأخوته عند سبى بابل . وبعد سبى بابل يكنيا ولد شالثيل . وشالثيل ولد زربابل . وزربابل ولد أييهود . وأييهود ولد الياقيم . والياقيم ولد عازور . وعازور ولد صادق . وسادوق ولد أخيم . وأخيم ولد اليود . واليود ولد اليعازر واليعازر ولد متان . ومتان ولد يعقوب . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح . فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة

عشر جيلاً ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلاً . ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً^(١) .

وقد أبرز المسيح منذ البداية أنه ما جاء لينقض دين إبراهيم وشريعة موسى بل جاء ليكمل « لا تظنوا أنى جئت لأنقض التاموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من التاموس حتى يتم الكل^(٢) » مما يدل على أن رسالة إبراهيم كانت بداية تطور تكمل في غايته رسالة السماء ، وأن أنبياء إسرائيل ليسوا سوى لبنات في سلم التطور العام للأديان السماوية وأن شريعة موسى ورسالة المسيح لم يكونا سوى مرحلتين من مراحل التطور الهام للرسالة التي بدأت بإبراهيم وختمت بمحمد .

وفي قول المسيح « إن لم يزد بركم على الكتب والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات^(٣) » دليل هذا التطور في تعاليم الديانة المسيحية ، فلو لم تأت المسيحية بجديد على شريعة موسى لكانت تكراراً لما قبلها ولو لم تزد المسيحية على تعاليم اليهودية لما كانت هناك حاجة إليها ، فعملية التطور والارتقاء قد صاحبت نمو الأديان ، فالصور المادية الساذجة في أسفار العهد القديم كالتجسد الإلهي وظهور الإله والملائكة في صور بشرية كانت ولا شك توائم مستوى الارتقاء العقلي والفكري في عصرها ، وكثير من الطقوس الدينية في الشريعة الموسوية تستثير سذاجتها تفكير إنسان القرن العشرين ولكنها في وقتها كانت تمثل مرحلة ارتقاء في التفكير البشري ، وإذا قارنا تعاليم المسيحية وطقوسها بالتعاليم الموسوية

(١) متى ١ : ١ - ١٧ .

(٢) متى ١٥ : ١٧ - ١٨ .

(٣) متى ٥ : ٢٠ .

وطقوسها بدت متقدّمة عليها من حيث التطور والارتقاء ، ولعلّ قصة الفداء في التوراة والقرآن تمثل مرحلة من مراحل تطوّر العقيدة وارتقائها ، فالقربان البشرى قد افتدى بقربان من الحيوان ، بل إن قصة عروس النيل وما كان من موقف عمر بن الخطاب منها حين استشير في أمرها ، فأشار بأن تبقى الطقوس على حالها وأن تلقى عروس من الطفل بدل العروس البشرية إلى النيل هي خير ما يهدينا إلى حقيقة هذا التطور في عقيدة من العقائد . فالثورة على التقاليد البالية قد يحملها إلى رجعى بغيضة وتعصب مقيت ، أما التطور فهو عملية ارتقاء غير محسوس تحقّق في هدوئها ما لا تحقّقه الثورة في عنفها ، وحين يكتمل التطور ويصبح العقل البشرى معدّاً لقبول التغيير تغدو الثورة ضرورة حتميّة لإتمام التغيير ، والثورة هنا هي مواجهة الواقع في شجاعة تعوز المتردّدين ، ففي بعض مراحل التقدم الإنساني تقف مرحلة التطور عند الخوف من التغيير الشامل أو الخزر من الجديد وحينئذ تتمثل الشجاعة في مواجهة الواقع والتسليم بحكمة التطور ، والثورة هنا ليست قلباً للأوضاع أو زلزلة للنظام الاجتماعى ولكنها جراءة على مواجهة التطور الذى يحسّه ويسلم به كل فرد ولكنه لا يجرؤ على الجهر به ، فما لا شك فيه أن ظهور المسيح قد صاحب استعداداً عاماً لقبول رسالته حين غدا التفكير الإنسانى أكثر سعةً وشمولاً ، وأصبح الإنسان أكثر استعداداً لقبول التغيير الجديد . وتبرز قصة المسيح المنتظر مدى التطور في العقيدة اليهودية والرجاء الذى كان يعقده اليهود أو بعض طوائفهم بالذات على ظهور النبى المخلص أو الهادى .

فبعد أن سقطت يهودا وحمل اليهود سبائا إلى أرض بابل أخذوا يحملون بقيام ملك من نسل داود يقود الجند ويحتاج بهم مدن أعدائهم ويعيد

ملك داود وسليمان وكانوا يسمونه مسيحاً لأنهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت المقدس فيقال له مسيح الرب .

وتجدد أملهم في المسيح المنتظر بعد أن دالت دول أعدائهم من البابليين والمصريين وظنوا أن نجم إسرائيل قد آذن بالارتفاع ، ولكنهم وقعوا في ربكة الدولة الرومانية ففقدوا كل أمل في مجد القوة وغدا خلاصاؤهم والصالحون منهم يأملون الخلاص بالهداية والتطهر أكثر مما يرجون الخلاص في القوة والسلطان ورأوا في المسيح المنتظر هادياً ومبشراً بالتوبة والتطهير ، وبعد أن كانوا يصفونه بالقوة والبأس والجبروت وشهوة السلطان والفتح أخذوا يصفونه بالوداعة والرضى والرحمة والحنان يحفو صهوات الجياد ويركب « حملاً ابن أتان » .

وكان ظهور يوحنا المعمدان أو يوحنا المغطس - وقد ذكر في القرآن باسم يحيى بن زكريا - بشيراً باقتراب موعد ظهور المسيح المنتظر . وقد أخذ يوحنا يدعو إلى التوبة والتطهر من الذنوب ويبشر باقتراب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء ، وجاشت بدعوته كل بطاح الأردن وعلى يديه تتلمذ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

فالتطور في فكرة المسيح المنتظر هو التطور في العقيدة الدينية ، التطور من عالم المادة إلى عالم الروح ومن عالم الحس إلى عالم الضمير ومن المراسيم والطقوس الحسية إلى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشراً بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود في كل زمان ومكان ، وجاء بشيراً للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين . وجاء يدعو إلى المحبة في عالم اجتاحتها الأثرة والأنانية وحب الذات والاستعلاء واستعباد الضعفاء .

وعاش في عالم لا حاجة به إلى تشريع أو قانون فقد حجبت التشريعات الرومانية كل تشريع آخر وانتظم قانونها كل رعاياها ولكنه في حاجة إلى الحب فبشر بالحب ودعا إليه ، فكانت المسيحية رسالة المحبة والفران والسمو بالنفس الإنسانية إلى أعلا عليين ، وخطت بذلك أعظم خطوات التطور الديني نحو الكمال المطلق في الإسلام وبذا ختمت رسالة السماء التي بدأت بإبراهيم وانتهت بمحمد ، فاكتملت صورة الوحدةانية وحد الفاصل بين الخير والشر والثواب والعقاب والفضيلة والرذيلة وعرفت موازين الخلق وحدود الشرائع وقومت الحياة الإنسانية خير تقويم يتفق وواقع الحياة وخير البشر وصلاحهم .

ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيل مراحل هذا التطور الديني وبيان صورته فإن كل ما يعيننا أن الأديان السماوية كل متكامل في هذا الوجود الإنساني تطورت بتطوره ونمت إلى الكمال ببناء هذا الوجود الإنساني نحو الكمال ، ولا يعنى هذا أن تطوّر الفكرة الدينية قد وقف عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فإن مظاهر الإسلام مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الإنساني نحو الكمال ، ومعجزة الإسلام أنه دين يساير كل زمان ومكان ويتطور بتطور الفكر الإنساني وتقدمه ، وكل ما يقف عنده الإسلام فلا يقبل فيه تفسيراً أو تأويلاً هو الجوهر وليس العرض فالوحدانية هي جوهر الإسلام لا تقبل تأويلاً أو تفسيراً أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهي قابلة للتأويل والتفسير وقد تناوّلها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتى ووضعوا لها حدوداً متباينة ولكنها في تباينها لا تمسّ جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل ، وقد ظنّ علماء الإسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر « ابن تيمية » ففتح باب الاجتهاد من جديد وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنة السلف ومنهم من جدّد وكان الشيخ

الإمام محمد عبده آخر المجددين في هذا المضمار .
فإذا كانت الأديان السماوية كلا متكاملًا تتصل بهذا الوجود الإنساني
في تكاملها فإن قصر عقيدة منها على أمة أو شعب أو عنصر دون الآخرين
هو افتئات على جوهر العقيدة وشذوذ في وحدة الوجود الإنساني .

وقد بعث موسى إلى بني إسرائيل كما بعث صالح إلى ثمود وشعيب إلى
مدين وهود إلى قوم عاد ، ولا يمكن أن نعدّ في هذا الرعيّل الأوّل من
الأنبياء ، أنبياء إسرائيل بعد موسى فقد كانوا كما قلنا من قبل كأولياء الله
في الإسلام والقديسين في المسيحية ، وكان ذلك حين كانت رسالة كلّ نبي
إلى شعبه حتى إذا عمّت الرسالة نسخت حقّ هؤلاء الأنبياء جميعًا بما فيها
الديانة اليهودية ، إذا أراد بنو إسرائيل أن تكون رسالة موسى لهم وحدهم
لا يشاركهم فيها غيرهم ولا يبشرون بها لغيرهم كما جرت سنتهم ، أما إذا
أرادوها رسالة للبشر عامة وبشروا بها بين الناس فإن ذلك ينسخ دعواهم
في التمييز والاختيار على غير ما يريدون ويدحض ما يدّعون من حق في
أرض الميعاد على غير ما يحبّون ، وهم على هذه الوتيرة من تأويل الوعد
المقدس لإبراهيم ، ينسخون في الوقت ذاته دعواهم في أرض الميعاد
بظهور المسيح المنتظر الذي بشروا به من قبل ، فقد جاء المسيح كما بشر
به النبي زكريا بقوله : « ابتهجي جدا يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت
أورشليم هو ذا ملكك يأتي هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى
جحش ابن أتان^(١) » وحين صعد المسيح إلى أورشليم صعد إليها كما قال
زكريا على ظهر « حمار ابن أتان » - « ولما دنوا من أورشليم وجاءوا إلى
بيت فاغى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلاً لهما :
اذهبا إلى القرية التي أمامكما فلولقوا تجدان أتاناً مربوطاً وجحشاً معها

(١) زكريا ٩ : ٩ .

فحلّاهما وأتيا لى بهما ، وإن قال لكما أحد شيئاً فقولوا الرب محتاج إليهما .
 فللوقت يرسلهما . فكان هذا كلّه لكى يتم ما قيل بالنبي القائل . قولوا
 لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان .
 فذهب التلميذان وقعلا كما أمرهما يسوع . وأتيا بالأتان والجحش ووضعاهما
 عليهما ثيابهما فجلس عليهما . والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق .
 وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها فى الطريق . والجموع الذين
 تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا لابن داود . مبارك الآتى
 باسم الرب . أوصنا فى الأعلى . ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلّها
 قائلة من هذا ؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من ناصرة
 الجليل^(١) .

فالأمل الذى راود بنى إسرائيل بظهور المسيح المنتظر قد تحقق بقيام
 عيسى عليه السلام برسالته ثم إن قدومه إلى أورشليم فى الصورة التى
 تخيلوها قبل مجيئه لا شكّ يحقق أملهم فيه فليس هو المسيح القادر القاهر
 الذى يقود الجند ويحطم الدساكر ويحتاج القلاع والحصون يخضع له الملوك
 وتدين الأمم لسلطانه كما صورته أوائلهم ، وليس هو المسيح الذى ينزله
 الرب نقمة على أعدائهم كما دعوا كورش ملك الفرس عندما خلّصهم من
 السبى البابلى وردّهم إلى أورشليم « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش
 الذى أمسكت يمينه لأدوس أمامه أمّا وأحقاد ملوك أحل لأفتح أمامه
 المصراعين والأبواب لا تغلق^(٢) » وليس هو المسيح المحتقر المخذول من
 الناس رجل الأوجاع والأحزان كما ذكر أشعيا وليس هو زربابل والى
 يهودا من قبل دارا ملك الفرس لأنه أعاد بناء الهيكل فقالوا عنه المسيح

(١) متى ١١ : ١ - ١١ .

(٢) أشعيا ٤٥ : ١ .

المنتظر ، وإنما هو المسيح العادل المنصور الوديع الذى يجفو صهوات الجياد ويركب « حماراً ابن أتان » .

جاء المسيح عليه السلام إلى اورشليم وبشر برسالته فى بنى إسرائيل ولم يأت لينقض بل جاء ليكمل فدعا إلى ملكوت السماء وقال إن ملكوت السماء يسع كل من دخل فيه . « أدعو الذى ليس شعبى شعبى والذى ليست محبوبة محبوبة^(١) » وإلى هذا يشير الرسول بولس بقوله : « لأنه فى المسيح يسوع ليس فى الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة . فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله^(٢) » ومعنى ذلك أن الإسرائيليين الحقيقيين ليسوا هم الذين ينحدرون من صلب يعقوب أب الأسباط فحسب بل يشملون جميع المؤمنين المتحدّين بالمسيح اتحاداً روحياً والحاصلين على نعمة التجديد سواء أكانوا يهوداً أم أمماً .

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل من أن الوعد بالإرث ليس للأرض بل للرسالة والبركة ، وأن الاختيار ليس للشعب بل للأرض ، فالأرض هى الأرض المقدسة كما قلنا لم تتجاوزها القداسة إلى غيرها ، أما الرسالة والبركة فقد حلّت فيمن وقع عليه الاختيار الإلهى ، وكان يسوع المسيح عليه السلام هو الموعود بالبركة والرسالة حينذاك وقد حلّت بركته فى كل من اتحد به اتحاداً روحياً وهذا ما يعنيه الرسول بولس بقوله : « لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون . ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد ، بل بإسحاق يدعى لك نسل ، أى ليس أولاد الجسد هم

(١) رومية ٩ : ٢٥ .

(٢) غلاطية ٦ : ١٥ - ١٦ .

أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلًا^(١) .

ويرى كثير من المسيحيين أن الوعود قد تحققت في تلك البقية التي أشار إليها النبي أشعيا ، وهي التي أشار إليها الرسول بولس بقوله : « فكذاك في الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة . فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال . وإلا فليست النعمة بعد نعمة . وإن كان بالأعمال فليس بعد نعمة . وإلا فالعمل لا يكون بعد عملاً . فمأذا ، ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله . ولكن المختارون نالوه^(٢) » فهذه البقية هي المختارة وهي التي اتحدت بالمسيح اتحادًا روحيًا وتكوّنت منها كنيسة العهد الجديد ، وهي التي تتسع لتشمل الأمم جميعًا كما جاء في وصية السيد المسيح لحوارييه : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس^(٣) . »

فرسالة المسيح قد نسخت حق بني إسرائيل في الاختيار ، حتى لو كان هذا الاختيار لبني إسرائيل دون الأمم ولم يكن للأرض المقدسة كما نقول ، كما جبت حقهم في البركة والرسالة بعد أن صارت الرسالة للأمم جميعًا وليست لبني إسرائيل وحدهم ، وحلت البركة في عيسى ليضيفها على كل من اتحد به اتحادًا روحيًا ودخل في ملكوت الله .

كما نسخ بعثه رؤيا بني إسرائيل في قدوم المسيح المنتظر الذي يعيد مملكة داود ويجدد بناء الهيكل ويعيد مجد أورشليم ، فقد قال بأنه المسيح المنتظر « أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه . وقال له أنت هو الآتي أم ننتظر آخر . فأجاب يسوع وقال لهما

(١) رومية ٩ : ٦ - ٨ .

(٢) رومية ١١ : ٥ - ٧ .

(٣) متى ٢٨ : ١٩ .

أذهبوا وأخبروا يوحنا بما تسمعون وتنظرون . العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر في^(١) .

ولم يعد بعد مسيحاً منتظراً « حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا^(٢) » ولن تكون عودة المسيح إلا يوم الدينونة حين يجتمع الخلق جميعاً في صعيد البعث والنشور . « والوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوء والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع . وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء . وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصاها^(٣) » ثم يتحدث عن يوم الساعة فيقول ما تتفق عليه المسيحية والإسلام « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماء إلا أبى وحده^(٤) » وهو ما رددته القرآن في مواضع كثيرة منها (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إن الله عليم خبير^(٥)) .

ويربط بنو إسرائيل بين بعث المسيح المنتظر وعودتهم إلى فلسطين ويشايعهم في هذا الاعتقاد بعض المسيحيين الذين يتوقعون عودة اليهود إلى فلسطين ليؤمنوا بالمسيح حين يعود إلى الأرض فيملؤها عدلاً وبراً

(١) متى ١١ : ٢ - ٦ .

(٢) متى ٢٤ : ٢٣ ..

(٣) متى ٢٤ : ٢٩ - ٣٠ .

(٤) متى ٥٤ : ٣٦ .

(٥) لقمان آية ٣٤ .

وسلامًا . وهم إذ يؤمنون بذلك يخطئون في فهم مدلول الوعد الإلهي فإن ما يعنيه هذا الوعد هو عودة إسرائيل الروحي لا إسرائيل بحسب الجسد ، وأنه يشمل كل من يؤمن بالمسيح سواء أكان من اليهود أم من غيرهم من الأمم . ولن تكون عودة إسرائيل الروحي إلا يوم القيامة كما جاء في سفر حزقيال « هأنذا » أفتح قبورك وأصعدكم من قبورك يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل . فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبورك وإصعادي إياكم من قبورك يا شعبي . وأجعل روحي فيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب^(١) . »

وهو ما يتفق وتعاليم السيد المسيح إلى حواريه عن عودته وعلامات تلك العودة مما سبقت الإشارة إليه ، فليست هناك عودة أخرى للمسيح إلا يوم القيامة . وليست هناك عودة بالتالي لإسرائيل إلى فلسطين إلا عودتهم الروحية يوم القيامة ، أما العودة التي أشارت إليها أسفار العهد القديم فهي عودتهم من السبي البابلي ولا تتكرر العودة مرة ثانية . وخلاصة ما تقدم أن الإرث في إبراهيم هو إرث البركة والرسالة ، وأن الاختيار للأرض وليس للشعب مما يدحض أسطورة شعب الله المختار وما يدعيه بنو إسرائيل من حق في فلسطين أو أرض الميعاد ، وأن بركة إبراهيم تحل فيمن يختار للرسالة وأن المختارين هم المختارون للهداية أى من يبعث فيهم نبي أو رسول .

وقد حلت بركة إبراهيم في أنبياء إسرائيل كما حلت في غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا إلى الأقوام الآخرين فال معروف أن الأنبياء جميعاً هم من نسل إبراهيم ، وقد نسخت رسالة المسيح ما قبلها من الرسائل

(١) حزقيال ٣٧ : ١٣ - ١٤ .

فحلّت فيه بركة إبراهيم ورسالته كما نسخت حق إسرائيل في الرسالة بشيوع رسالة المسيح إلى الأمم جميعاً من كان من إسرائيل أو من غير إسرائيل .

وأما الأرض فهي الأرض المختارة اختارها الرب في الأزمنة القديمة لينحدر إليها إبراهيم لأنها بموقعها الذي يتوسط رقعة العالم القديم أصلح مكان لنشر دعوة الإيمان والتبشير بها في العالم الوثني المحيط ، وخصّ بها أصحاب البركة والرسول من نسل إبراهيم سواء أكان من إسماعيل أم من إسحق ، وقدّسها في كلّ دين وفي كلّ زمان ومكان وخصّها بالمؤمنين من عباده